***Dirasat*: Human and Social Sciences, Volume 49, No. 6, Supplement 1, 2022**

Deanship of Scientific Research

Nietzschean Roots in Foucault's Philosophy

Nahla Alziq Aljimzawi*

School of Arts, The University of Jordan, Amman, Jordan.

Received: 8/2/2021
Revised: 5/7/2021
Accepted: 11/10/2021
Published: 30/12/2022

* *Corresponding author:*
Jimzawi1@yahoo.com

Citation: Alziq Aljimzawi, N. . (2022). Nietzschean Roots in Foucault's Philosophy. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *49*(6:), 183–193.
https://doi.org/10.35516/hum.v49i6:.3999

Abstract

This research discusses the Nietzschean roots of the philosophy of Michel Foucault, as - that is, Foucault - one of the most prominent pioneers of postmodern philosophy whose roots were laid by Friedrich Nietzsche. The research monitors the intersections between the philosophies of both Nietzsche and Foucault in an attempt to answer the basic research question about the Nietzschean roots in Foucault's philosophy, that is, what is the impact of Nietzsche on the formation of Foucault's philosophy? Through the following topics: (Between authority and power, knowledge and truth, striking the principle of the essential significance of words, genealogy and archeology, interpretation, madness, the death of man, the role of art, instinct and body, language and literature).

The research confirms the radical relationship between Foucault's philosophy and Nietzsche's philosophy, as the latter originated from Foucault's thought and his philosophical propositions, and influenced a large number of postmodern thinkers and philosophers and their intellectual and philosophical proposals.

Keywords: Nietzsche; Foucault; power; will; knowledge; genealogy; archeology.

© 2022 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الجذور النيتشوية في فلسفة فوكو

نهلة الزق الجمزاوي*

كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

ملخّص

يناقش هذا البحث الجذور النيتشوية لفلسفة ميشيل فوكو، بوصفه -أي فوكو من أبرز رواد فلسفة ما بعد الحداثة التي أرسى جذورها فريدريك نيتشه كما أعتقد. يرصد البحث أوجه التقاطع بين فلسفتي كلّ من نيتشه وفوكو في محاولة للإجابة عن سؤال البحث الأساسي حول الجذور النيتشوية في فلسفة فوكو، أي ما مدى أثر نيتشه في تشكل فلسفة فوكو؟ وذلك خلال المحاور التالية: (بين السلطة والقوة، المعرفة والحقيقة، ضرب مبدأ الدلالة الجوهرية للكلمات، الجينيالوجيا والأركولوجيا، التأويل، الجنون،موت الإنسان، دور الفن، الغريزة والجسد، اللغة والأدب)، الخروج بخلاصة تؤكد فرضية البحث وتجيب عن سؤاله الرئيس، التي مفادها العلاقة الجذرية بين فلسفة فوكو وفلسفة نيتشه، إذ أصَّلَت الأخيرة لفكر فوكو وطروحاته الفلسفية، كما أثرت في عدد كبير من مفكري وفلاسفة ما بعد الحداثة وطروحاتهم الفكرية والفلسفية.

الكلمات الدالة: نيتشه، فوكو، السلطة، إرادة، المعرفة، جينيالوجيا، أركيولوجيا.

المقدمة:

أهمية البحث:

أحدث نيتشه انقلابًا صادمًا في المسار المعرفي الكوني، يقاسمه في ذلك كلّ من ماركس وفرويد، وأسهم في قلب نظام التأويل كليًا في الفكر الغربي. ويعدّ ميشال فوكو من أبرز من تأثر بهذا الثلاثي، إذ يقول: "إن ماركس وفرويد ونيتشه، لم يضيفوا دلائل جديدة للعالم الغربي. إنهم لم يضيفوا معنى جديدًا على أشياء لم يكن لها معنى، وإنما غيروا في الحقيقة طبيعة الدليل، وبدلوا الكيفية التي بإمكان الدليل أن يؤول بها. (فوكو, 1988) فجينيالوجيا نيتشه تكرس قطيعة مع التقاليد الفلسفية برمتها، وتنسف التراث الميتافيزيقي وتهدمه، ونيتشه بالنسبة لفوكو هو من أنقذنا من سباتنا الجدّي والإنتروبولوجي (نيتشه, 2005) ويشير فوكو إلى أن مقولات نيتشه الجديدة كالمأساوية، ومطرقة الفلسفة، والإنسان الأعلى والعود الأبدي، هي أصوات جديدة للتحليل تعوض الأنساق الميتافيزيقية.

لذا صار لا بد من رصد الجذور النيتشوية التي تركت أثرًا كبيرًا في فلسفة فوكو وحفره الأركيولوجي للبحث عن المعرفة والحقيقة، بعد القطيعة التّامة أيضًا مع كلّ ما هو غيبي ميتافيزيقي، وجرّ الفلسفة من عليائها للبحث في الشّأن الأرضي حيث استبدال الثلاثي المعرفي السابق: (الله، الكون، الإنسان) ليصبح (الإنسان، الكون) فقط بحسب نيتشه، ومن ثم انطلاق فوكو للبحث عن السلطة في أسفل القاعدة الهرمية للمجتمع، حيث تقبع شريحة لم تعالجها الفلسفات المتعالية..إنها طبقة المهمشين والضعفاء والمجانين في السجون والمستشفيات والعيادات النفسية وحتى الجنود وعمال المصانع.

ومن هنا يحق لنا التساؤل: إلى أيّ مدى شكلت فلسفة نيتشه جذورًا لانطلاقة فلسفة ميشيل فوكو، وكيف تجلت هذه الفلسفة في فكره على صعيدي الوعي واللاوعي؟

أهداف البحث:

تسليط الضوء على دور فلسفة نيتشه وأهميته في إحداث ثورة إبستمولوجية أثرت في العديد من المفكرين في عصر النهضة من أبرزهم ميشيل فوكو.

1- تسليط الضوء على أبرز سمات فلسفة ميشيل فوكو بوصفه واحدا من أهمّ رواد الفكر المعاصر، لما أضافه من نهج جديد في البحث عن المعرفة عبر الحفر الأركيولوجي، وتتبع المهمشين.

2- استنباط الجذور النيتشوية التي وقفت وراء فلسفة ميشيل فوكو.

3- تطبيق منهجيّ كل من: فوكو الأركيولوجي، ونيتشه الجينيالوجي، في دراسة كلّ منهما بما يخدم في النهاية سؤال الدراسة الأساسي " أثر نيتشه في فلسفة فوكو.

منهج البحث:

تتبع ورصد أثر نيتشه وفلسفته في فكر ميشيل فوكو، عبر الغوص في منجزاته الفكرية من كتب ومقالات ومحاضرات، وذلك باستخدام منهجيهما، (جينيالوجيا نيتشه- وأركيولوجيا فوكو). بمعنى دراسة فوكو نيتشويًا عبر الحفر في المصادر.

النيتشوية في فلسفة فوكو

إن المعرفة في الفكر البنيوي الفرنسي الحديث، مؤسسة على التمثل، وتحليل العلاقات بين العناصر الجامدة، وذلك بإقصاء مفاهيم الإنسان والتاريخ التي ظهرت في القرن التاسع عشر، أما الفكر المعاصر فليس بنيويا على الأغلب، "وهكذا فالعناصر البنيوية في فكر فوكو، ترجع إلى موضوع بحثه وليس إلى منهجه" (ولد أباه, 2004) إذن ففلسفة فوكو نمط جديد يندرج في سياق فلسفات ما بعد الحداثة، التي تشكلت ونمت في فضاء االفكر النيتشوي، الذي أحدث انقلابًا في القاعدة الأنطولوجية الأخلاقية للفكر الحديث.

أشار فوكو إلى تأثره بنيتشه في أكثر من محطة، لدرجة أنّه "اعتبر أنّ أعماله كلها تتبع خيطًا موجهًا رسمته جينيالوجيا نيتشه" (ولد أباه, 2004) وأنّه بالرغم من أن مصيره الفلسفي كان محددًا بقراءة هيدجر، إلا أن نيتشه قد استأثر في اهتمامه، ويؤكّد ذلك عبر مقولته الشهيرة:" "أنا ببساطة نيتشوي أحاول بقدر الإمكان أن أرى بخصوص عدد من النقاط – بمساعدة نصوص نيتشه- ولكن مع ذلك أنا مع أطروحات مضادة لنيتشه، وإن كانت مع ذلك نيتشوية" (ولد أباه, 2004)

فهو هنا يعرب عن اتفاقه الكبير مع نيتشه بالرغم من اختلافه معه، وشقّ طريق أركولوجي فوكوي خاص، لكنه لا يبتعد كثيرًا عن نيتشه. لذا نجد أن الطابع النيتشوي يبدو واضحًا في فلسفة فوكو من حيث المناخ الإشكالي أو الجهاز المفاهيمي، أو من حيث تجسّدها في ميادين البحث الجينيالوجي. فكما أسلفنا فإن نيتشه إلى جانب فرويد وماركس، أحد ثلاثة قلبوا جذريًا نظام التأويل ذاته في الفكر الغربي.

فجينيالوجيا نيتشه تنسف التقاليد الفلسفية برمتها، وتنسف التراث الميتافيزيقي وتهدمه، ونيتشه بالنسبة لفوكو هو المنقذ والموجه. فمقولات

نيتشه الجديدة كالمأساوية، ومطرقة الفلسفة، والإنسان الأعلى، والعود الأبدي، هي البديل الجدّي للتحليل تعوضه عن الميتافيزيقي. وبإمكاننا أن نرصد أبرز التقاطعات بين فلسفتي نيتشه وفوكو عبر المحاور التالية:

1) بين السلطة والقوة:

إذا كانت السلطة عند فوكو هي نتاج تفاعل الشبكة الاجتماعية برمتها فإن نيتشه سبق وقال: "إنّ الشعب يقرر أولًا ماذا يريد ثم يطابق بين الحقائق والأهداف...في النتيجة إن الإنسان لا يرى في الأشياء إلا ما استورد هو بالذات إليها" (ولد أباه, 2004)، وأن كل المعارف هي تعبير عن (الرغبة بالسلطة).

ويرى فوكو أنّ الشعب يتعرف على أفكار فلسفية على أنها حقيقة، إذا توافقت مع توصيفات الحقائق التي جرى وضعها من قبل السلطات الثقافية والسياسية، أو بواسطة النخبة الحاكمة أو الآيديلوجيات المعرفية الصاعدة. ويشترك كلّ من هيدجر وفوكو في استلهام آراء نيتشه حول الإرادة والقوة، في وضع تصور حول السلطة يستند إلى أنّ السلطة هي شرط أساسيّ للوجود والمعرفة.

عمل فوكو على دحض الثوابت والمسلمات التي وصلت حدّ عدّها قواعد غير قابلة للتغيير، كقضية تملك السلطة، أي اقتصارها على طبقة أو فئة محددة من المجتمع، دون أخرى، أو أنها في ملك الدولة الحاكمة. ولا ينفي فوكو هذه النظرة حول السلطة، بل يتجاوزها ويذهب إلى عدّ السلطة بمثابة استراتيجية قائمة على مجموعة من العلاقات المتشابكة والمتداخلة فيما بينها، التي يصعب عزلها جيدًا. والسلطة، تتشكل من شبكات من الممارسات والنظم والخطابات التي يتداخل فيها ما هو اجتماعي بما هو اقتصادي وما هو سياسي وبما هو معرفي أيضًا. فعلاقات السلطة "علاقات إنتاجية قبل كل شيء... إنها "علاقات خلاقة وحربائية". " (دولوز, 1987)) ففوكو يتجاوز كلًّا من الفهمين (اليميني واللبرالي) من جهة واللذين يعدّان السّلطة هي سيادة الدستور والرجوع للقانون...وكذلك الفهم الماركسي من جهة أخرى الذي يعدّ أنّ السلطة في يد الدولة يطرحها من خلال الصراع الطبقي وصراع المصالح.

وفوكو كما يؤكد دولوز، لا يلغي أو لا يلقي بهذين التصورين إلى سلة المهملات. ولكنّه "يريد أن يبين الوجه الجديد الذي تأخذه السلطة" (دولوز, 1987) يقول: "يجب عدّ السلطة بمثابة شبكة منتجة تمرّ عبر الجسم الاجتماعي كله، أكثر مما هي سلبية وظيفتها هي ممارسة القمع". (فوكو, 1984) فهي منتجة لخطابات حيوية ومتجددة، وهي قائمة على "علاقات القوى المتعددة التي تكون محايثة للمجال الذي تعمل فيه تلك القوى وهي "علاقة قوى، أو أنّ كل علاقة قوى، هي على الأصح علاقة سلطة". (فوكو, 1988).وكذلك نجد أنّ "نيتشه أيضًا يرى أنّ علاقة القوة تتعدى العنف ولا تنحصر فيه أو تتحدد به" (دولوز, 1987). إذ يرى دولوز أنّ أول خصائص القوة بالنسبة لنيتشه هو كونها لا توجد منفردة، أي لا يجب أن نتحدث عن القوة بقدر ما يجب أن نتحدث عن تعدد القوى، ذلك أنّ كلّ قوة تتوجه إلى قوة أخرى، لتدخل معها في علاقة صراع. ولا يمكن للقوة أن تنفصل عن إرادة القوة، بمعنى أن إرادة القوة هي"مكمل للقوة، إسناد إرادة القوة إلى القوة". (دولوز, 2001) وإرادة القوة، إرادة ورغبة، وكذلك نلحظ أن علاقات السلطة عند فوكو نابعة من القصدية، وهي بمثابة خلق وإبداع فهي بذات المعنى ل(إرادة القوة) النيتشوية.

ويجد دولوز أن موقف فوكو من السلطة هو "موقف نيتشوي عميق".(دولوز, 1987) وهذا الموقف يتلخص في ثلاثة محاور:

أوّلها: أنّ القوة (السلطة) ليست بالضرورة سلطة قامعة، "فالفرضية القمعية"، التي يمكن النظر من خلالها إلى اشتغال السلطة، تظل قاصرة عن فهم وإدراك "آليات السلطة". والثاني أن القوة تمارس وتشتغل قبل أن تتجسد أو تتملك، ويصعب تعيين العلاقات السلطوية وتجسيمها، إذ إنها أكثر فعالية وإنتاجية (فقوتها تكمن في تخفيها). والثالث وأن هذه السلطة شاملة ويجري سريانها على الكل.

إذن فإرادة القوة التي تمثل محور فلسفة نيتشه وركيزتها الأساسية توازي السلطة بمفهومها الجديد الذي شكّله فوكو استنادًا إلى مبدأ القوة النيتشوي، ومن ثمّ أتفق مع ما ذهب إليه جيل دولوز بأنّ موقف فوكو من السلطة هو موقف نيتشوي عميق.

2) المعرفة والحقيقة

ينتقد نيتشه الحقيقة المتعالية المتّكئة على القوى الغيبية العليا، والميتافيزيقا ليجرها من عليائها نحو واقعها الأرضي المرتبط بإرادة الإنسان وقوته، بل وجعلها متماهية مع السلطة في طرح جديد أطاح بكل المقولات المعرفية السابقة، ويشير إلى ذلك في كتابه "جينيالوجيا الأخلاق" فيقول: " انطرحت الحقيقة دوماً كجوهر، كإله، كهيئة عليا، لكن إرادة الحقيقة تحتاج إلى نقد.....يجب أن نحاول نهائيًا أن نطرح للمناقشة قيمة الحقيقة" (دولوز, 2001)

فالحقيقة لدى نيتشه لا تعدو أن تكون إرادة سلطة، أي إرادة قوة لطالما نظّر لها نيتشه في مواقع كثيرة من نصوصه إذ تجده يقول: "تُسمّون ما يحفزكم ويؤججكم أيها العظماء إرادة الحقيقة. وإني أسمي إرادتكم هذه إرادة جعل ما هو كائن قابلًا للتصور...هذه هي إرادة القوة لديكم، أيها الحكماء العظماء". (نيتشه, 2006)

ويرى نيتشه أنّ الرغبة اللاعقلانية والغريزة الحيوية أو ما يسمى بالنفع الحيوي الذي يحقق استمرارية الحياة هو ما يوجه البحث عن المعرفة وليس الرغبة في الحقيقة أو الحكمة...فقوة المعرفة لديه تقاس بمدى تجذّرها في التاريخ الإنساني وما تحققه من نفع حيوي في المجتمع وليس بتعبيرها عن الحقيقة. بل إنّ نيتشه يسبغ على الحقيقة استعارات وكنايات كثيرة دون أن تحمل في ذاتها معنىً محددًا فهو يصوّر الحقيقة كامرأة فشل الفلاسفة في فهم طباعها.. فهي امرأة تحبذ القوة ولا تبالي بالحكمة والشعارات المحايدة. (نيتشه, 1995)

و يسعى فوكو إلى تعميق فلسفة نيتشه حول المعرفة بعدّها مرتبطة بإرادة القوة ذلك أنها مرتبطة بعلاقات وطيدة مع السلطة ولا ينفك يؤكد على

أنّ الحقيقة ليست خارج السلطة، وليست بدون سلطة، فالمعرفة ليست وليدة التعطش للحقيقة وبلوغ الحكمة بل التعطش إلى السلطة وإقصاء كل خطاب يقف أمامها. إذن فالمعرفة لدى كل من فوكو ونيتشه ليست نزيهة ولا محايدة بل إنهّا متداخلة مع السلطة ومصالحها، فما أفاده من نيتشه هو ربط القوة (السلطة) بالحقيقة والمعرفة بتلازم وثيق,لأن الحقيقة في نظره هي ذاتها سلطة.

ويجد فوكو أن نيتشه إنمّا سعى إلى زعزعة اليقينيات الثابتة التي كانت تقف عليها الحقيقة، وكشف كل ما تتقنع به من نزاهة وحياد، إذ يقول: إن ما أراد نيتشه القيام به هو "إعادة النظر في إرادتنا للحقيقة، إعادة طابع الحدث للخطاب، وأخيرًا رفع سيادة الدال" (فوكو, 1984) فالسلطة والحقيقة والمعرفة متشابكات لا يمكن الفصل بينها, مما يجعل الحقيقة المتعالية في نظر نيتشه، مجرد وهم وخداع: " ففرضية أريد الحقيقة تعني لا أريد الخداع، ولا أريد الخداع تنطوي على حالة خاصة هي: لا أريد أن أخدع نفسي بنفسي". (نيتشه, 2001)...ويعني نيتشه أنّ الحياة ترمي إلى التضليل، والخداع والتكتم والبهر والإعماء، لكن ذلك الذي يريد الحقيقة يريد أولًا أن يحطّ من قدر الزائف" ويقصد النظريات المتعالية التي تجعل من الحياة خطأ يعارض الحياة التي تكتشف بالمعرفة أي أنه "يعارض العالم بعالم آخر، بما وراء عالم، أي بالضبط العالم الحقيقي.....إنّ الإنسان الذي يريد أن لا يخدع يريد عالمًا أفضل وحياة فضلى، وكلّ هذه الأسباب لعدم الخداع هي أسباب أخلاقية. لكن فضيلة هذا الإنسان الأخلاقية تتمثل في توزيع الأخطاء على الحياة واتهامها....يريد أن تصير الحياة فاضلة وأن تصلح نفسها لتلعب دور معبر إلى العالم الآخر..أي أن تجحد الحياة نفسها وتنقلب ضد ذاتها...يريد شيئًا أشد عمقًا..الحياة ضدّ الحياة" (دولوز, 2001) ويشير هنا إلى التناقض الديني أو الزهدي.

إذن تعالي الحقيقة، هو ما نسفه نيتشه، وتبعه في ذلك فوكو الذي سلك البحث والتنقيب عما هو حقيقي على أرض الواقع في تفاصيل الشبكة الاجتماعية، حيث تنتج السلطة التي تصنع الحقيقة المرادة..ذلك أن المعرفة هي وليدة الحاجة المتعطشة لا إلى الحكمة وبلوغها، بل للسلطة وفرض خطاباتها، وإقصاء ما عداها...وبذلك ينسف فوكو متأثرًا في نيتشه قاعدة نزاهة الحقيقة لتصبح منتجًا متغيرًا، هو أحد إفرازات السلطة الذي توظفه لخدمتها. وفوكو هنا متأثر في التحليل السوسيولوجي النيتشوي لآلية إنتاج الحقيقة المرتبطة بالمعرفة والسلطة.

3) تغيير طبيعة الدلالة للكلمات:

يظهر لنا موقف فوكو من قضية "دلالة الكلمات" عبر حديثه عن نيتشه، إذ يؤكد أنه لا يوجد لدى نيتشه مدلول أصلي يمكن الرجوع إليه، فالقيم والكلمات ما هي إلا تجسيد لصراع القوى والتأويلات التي تهيمن على الدلالة، وترفعها إلى مستوى الحقيقة. ربما يختلف فوكو عن نيتشه، بأنّ الأول يشرح ويشخص الفئات الطبقية عبر التاريخ، دون توجيه نقد كما فعل نيتشه الذي استخدم النقد، والتعرية، والنقض الكلي، في كلّ محطة من محطات التاريخ التي تعرض لها.

ويشير فوكو إلى أهمية نيتشه في تغيير طبيعة الدلالة ذلك أنه كشف لنا بأنّ نظرتنا إلى كلّ من (القيم والفكر واللغة...)، هي التي تضيف إليها الدلالة، أي أننا نحن من يضفي الدلالة على الكلمات، وما نضفيه من دلالة، ليست ماهية لها، أي ليست كامنة فيها كجوهر، بل هي إنتاجنا. إذ يقول فوكو: "لا يوجد بالنسبة لنيتشه مدلول أصلي". (نيتشه, 2005) ولذلك فالقيم والكلمات هي تجسيد لصراع القوى والتأويلات، التي تبتغي الهيمنة على الدلالة، ورفعها إلى مستوى الحقيقة. ولهذا يرى فوكو أنّ ميزة التفسير الجديد هو انعدام الركون إلى تفسير واحد ودلالة مطلقة أكثر من ذلك، إنّ هذا التفسير يؤكد أنه لا وجود لشيء يستدعي التفسير، لا لشيء إلا لأن "كلّ شيء إنما هو في العمق تفسير". (نيتشه, 2005) وفي هذا ضرب لمبدأ الدلالة الجوهرية، أو التفسير الأصلي الذي يتكىء على مبدأ الجينيالوجيا النيتشوية والأركيولوجيا الفوكوية.

4) الجينيالوجيا والأركولوجيا:

إنّ تأثر فوكو في نيتشه، يرتبط بمنهج الحفر والنقد والتأويل بمعنى المعالجة الجينيالوجية للمعرفة، إذ إن"نيتشه بالنسبة لفوكو هو تكريس للقطيعة الإبستمولوجية مع التقاليد الفلسفية، القديمة المتكئة على الميتافيزيقيا...وهو من أوجد أدوات جديدة للتحليل، تعوض الأنساق الميتافيزيقية" (ولد أباه, 2004) إذ تأثر فوكو في عملية استخدام نيتشه لمفهوم الجينيالوجيا بوصفها وسيلة لنسف الميتافيزيقيا من جذورها، بعدّها مرجعية للمعرفة.

الحفر في التاريخ بالنسبة لفوكو وفقًا للمنهج الجينيالوجي النيتشوي، يقوم على أساس القطع لا الوصل، بمعنى تسليط الضوء على ما جرى استثناؤه من الحقيقة عبر التاريخ، كالجسد والغريزة، لذا فهو يظهر الحرب والهيمنة بدل السلم والحرية، ففوكو يؤمن بالتأويل وكشف الأقنعة، ويرى أنّ التاريخ متمرد يطلعنا على سرّ مهم، وهو أنّ لعبة التاريخ الكبرى تتمثل فيمن يفوز بالقواعد ويستأثر فيها،..لأن هذا الفوز سيتيح لصاحبه أن يهيمن ويسود باسم، التنظيم والعقلنة والمعرفة. وللحسّ التاريخي، كما يرى فوكو استعمالات ثلاثة تصبّ في المنحى نفسه ألا وهو معارضة التاريخ الميتافيزيقي أو الأفلاطوني. يتمثل الاستعمال الأول في السخرية من الواقع، ومن "الهويات الجوفاء"، تأكيدا لحضور الهامش وما هو مقصى. بينما يتمثل الاستعمال الثاني في"التفكيك" ألا وهو "التقويض الدائم لهوياتنا" (فوكو, 1988). ذلك الذي يبرز الانقطاعات والانفصالات والتصدعات التي تخترقنا. أما الاستعمال الثالث فيعدّ تتمة للأول والثاني، بواسطة نقد الذات العارفة والتخلص منها مما يوضح عدم نزاهة إرادة المعرفة بسبب شياطين الغريزة والهيمنة المستبدّة بها. فالتاريخ الفعلي كما يرى فوكو، يريد أن ينقذنا من سباتنا الطويل ويجعلنا نقرأ حقائق جديدة لم نعتد عليها من قبل بطريقة لطيفة.

فالجينيالوجيا النيتشوية بحسب فوكو هي بحث متواصل عن البدايات، وليس الأصل، بكل ما تتسم به من شتات في تفاصيلها، وسخافة في هوامشها، وقبح في مظاهرها. فبينما ترمي الميتافيزيقا إلى الكشف عن الأصل الواحد والجوهري، وإبراز اختراق الماهيات للأعراض، والوحدة للأجزاء، تقوم الجينيالوجيا على عكس ذلك، بالبحث عن المصدر الذي "يربك ما ندركه ثابتًا، ويجزئ ما نراه موحدًا، ويجعلنا ندرك أنّ المطابق لذاته غير متجانس". (فوكو, 1988) ويرى فوكو أنّ مهمة الجينيالوجيا في خلخلة الميتافيزيقيا وتكسير أصنامها لا بدّ لها من الاستعانة بالتاريخ، ولكن ليس بطريقة تأريخية تسجيلية كما يفعل علماء التاريخ وحتى فلسفة التاريخ، ولا بطريقة ميتافيزيقية، وإنما على العكس من ذلك فالتاريخ الجينيالوجي، أو "التاريخ الفعلي"، كما يسميه فوكو، "يعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التي يحظى بها الأصل". (فوكو, 1988) وكأنه يريد أن يقول أن هذا التاريخ تخضعه الجينيالوجيا إلى النقد والتشريح والتأويل دون أي حصانة أو قدسية تحفه بمعاني جاهزة.

ويشير فوكو في أكثر من مكان إلى مدى تأثره في الجينيالوجيا النيتشوية: "هناك ثلاثة ميادين ممكنة للنسابات: أولها أنطولوجيا تاريخية لذواتنا في علاقاتها بالحقيقة، تمكننا من تأسيس أنفسنا كذوات معرفية. وثانيها أنطولوجيا تاريخية لذواتنا في علاقاتنا بحقل من حقول السلطة، تتأسس فيه كذوات قيد الفعل في الآخرين. وأخيرا أنطولوجيا تاريخية لعلاقاتنا بالأخلاق، تمكننا من تأسيس أنفسنا كفاعلين أخلاقيين" (إسماعيل, 1986) لذلك يمكن الحديث عن أواصر "قرابة فكرية" –إن صح التعبير- بين الجينيالوجيا النيتشوية والأركيولوجيا الفوكوية. (إسماعيل, 1986)

ولعل أكثر ما تتضح فيه العلاقة الوطيدة بين جينيالوجيا نيتشه وأركيولوجيا فوكو هو فيما يوليانه للتاريخ من أهمية كبرى وفق فهم جديد. ففيما توضح الجينيالوجيا صراع القوى والتأويلات، تقوم الأركيولوجيا بإقامة تاريخ للفكر والمعارف والفلسفة والأدب، بالعودة إلى الوثائق بروح جديدة تتخلى عن السذاجة التاريخية وتتبع آلية النقد والتشكيك. (إسماعيل, 1986) وهكذا تتفق الآركيولوجيا مع الجينيالوجيا في تجاوز الميتافيزيقيا والأفلاطونية نحو الحفر والشك والانفصال والنقد والنقض، لكنهما يختلفان في أنّ نظرة نيتشه طبقية قائمة على نقد العبيد ومظاهر الضعف والانحطاط وكذلك القوى الارتكاسية العدمية.

أما فوكو فيقوم، بكشف علاقات الهيمنة، ومظاهر الانفصال في التاريخ، دون النظر إلى تقييم فئات أو طبقات محددة، بهدف نقد السلطة وتعرية الجوانب التي سعت إلى تهميشها فشكلت عائقًا أمام الحقائق بل إنّها سيطرت على الحقيقة حتى باتت تنتجها وتماهت معها تمامًا.(إسماعيل, 1986)

من هنا أرى أنّ أركولوجيا فوكو لم تبتعد التي استمدّت جذورها من جينيالوجيا نيتشه كانت تتكيء في جوهرها إضافة إلى الكشف والتعرية والنقد على عنصر التأويل الذي شكل جوهرًا لعمليات الحفر النيتشوية والفوكوية ومن هنا جاءت المقدمة المطوّلة التي وضعها فوكو في مقدمة كتاب: " الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي"، لذا نجده يتمنى بأن يجري إنشاء تاريخ توثيقي كبير، يشتمل على آليات التفسير التي مرت على البشرية لذا تجده يقول:

"في الواقع أن هناك حلمًا يتراءى من وراء هذه الموضوعات، حلم بأن يصبح بإمكاننا يومًا أن نكوّن نوعًا من الملف العام، أو الموسوعة التي تضم جميع تقنيات التفسير التي أتيح لنا أن نعرفها منذ النحويين الإغريق حتى يومنا هذا. إن هذا الملف الكبير الذي يضمّ كافة تقنيات التفسير، لم تُصَغ منه بعد الآن، على ما أعتقد، إلا فصول قليلة" (نيتشه, 2005) وأعتقد أنّ هذه الجدوى الأساسية المرجوة من عملية الحفر المعرفي التي ينشدها، ومن ثمّ يأخذ التأويل الحيّز الأكبر من التقاطع الفلسفي بين فوكو ونيتشه...

5) التأويل:

إنّ أوّل ما سحر فوكو وشدّه باتجاه فلسفة نيتشه هو مبدأ التأويل المنسلخ تمامًا عن الأسس الميتافيزيقية. ويعدّ نيتشه أنّ الحقيقة تتمثل في مجموعة من التأويلات، بل إنها جمهرة من الاستعارات والكنايات. ومنذ كتابه "هكذا تكلّم زرادشت" تجلت لنا فلسفته عبر رموز وإشارات ودلالات كالطفل والجمل والأسد التي تمثل دورة الحياة..كما اشتملت على رموز كرمز المرأة التي قصد بها الحياة، وغيرها من الرموز.

"وبالرغم من أننا نلمس بعض التناقض في فكر نيتشه، إلاّ أنّ قراءته تولد الشعور أنّ هناك ترابطات عميقة مستترة بين هذه الأفكار. لكن اكتشافها أيضًا يستلزم التأويل، بل عدة من التأويلات، لأنه ليس هناك تأويل وحيد يمكن أن ينسج كل هذه الأفكار في نسيج واحد موحد". (غصيب, 2012)

وإذا كان التأويل عنصرًا أساسيًا من عناصر الأدب فإن لدى نيتشه فلسفة خاصة وغرائبية تستلزم البحث المتواصل، إذ إنّ نيتشه لم يكن فيلسوفًا بالمعنى السائد للكلمة، بل إنه "عني بما يسميه الألمان الروح geist، أيّ بالفلسفة والدين والأدب والموسيقى والفن وعلم النفس وتاريخ العلم". (غصيب, 2012) ولذلك فإن قراءة نيتشه تحتاج إلى رؤية تأويلية ثاقبة من أجل محاولة الوقوف على المعنى المضمر في نصوصه... وإضافة إلى ذلك أجد إن فلسفة التأويل لدى نيتشه أخذت طابعًا ثوريًا هو جزء من الثورة الجينيالوجية الأخلاقية العارمة... فالتأويل بعد تجرّده من الميتافيزيقيا والقيم العليا أصبح متحررًا من أحادية المعنى أو الثبات، وكذلك أرى أن فوكو ينحاز إلى موقف نيتشه من التأويل إلى حدّ كبير، معربًا عن استنكاره لوجود تأويلات ثابتة لنص معين، لغوياًكان أم غير لغوي... ففي معرض حديثه عن تقنيات التفسير في المقدمة التي وضعها لكتاب نيتشه " الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي"، يؤكد فوكو أنّ ما يمكن قوله حول تاريخ تقنيات التفسير هو: " إنّ اللغة، على الأقل في الثقافات الهندو– أوروبية، قد ولدت دائمًا نوعين من الشكوك: أولًا: الشك في أنّ اللغة لا تقول فعلًا ما تقول. فمن المحتمل ألا يكون المعنى الذي نفهمه، الذي يبرز مباشرة، سوى معنى ناقص يحمي، يختزن أو يؤدي، بالرغم من كل شيء، إلى معنى آخر، وبذلك يكون هذا المعنى الآخر هو في الوقت ذاته المعنى الأقوى، المعنى "التحتي" حدّ تعبير فوكو....

– من جهة أخرى يرى فوكو أنّ اللغة ذاتها هي التي تولّد هذا الشكّ الآخر لأنها تتجاوز شكلها الشفهيّ الخالص، ويعتقد أنّ هناك أشياء أخرى في العالم تتكلم، مع أنها ليست لغة بالمفهوم الشفوي للغة، ويقصد بذلك ما تبثه الطبيعة من تعبيرات مثل هدير البحر، وحفيف الأشجار، وأصوات الحيوانات، والوجوه، والأقنعة... " كل هذه الأشياء قد تتكلم، من المحتمل أن ثمة لغة متمفصلة بطريقة لا شفهية". (نيتشه, 2005)

ويشير فوكو إلى إنّ هذين الشكلين الإغريقيين، ما زالا معاصرين، وأننا نصغي إلى هذه اللغة الممكنة أكثر من أيّ وقت مضى، محاولين أن نفاجئ تحت الكلمات خطابًا قد يكون أكثر جوهرية... ويؤكّد أن القرن التاسع عشر، وبالتحديد ماركس ونيتشه وفرويد قد فتحوا أمامنا مجددًا إمكانية جديدة للتفسير، فيقول: "إن ماركس، ونيتشه، وفرويد لم يضاعفوا الدلالات داخل العالم الغربي. إنهم لم يعطوا معنى جديدًا لأشياء لم يكن لها معنى، إنهم في الواقع قد غيروا طبيعة الدلالة، وعدلوا الطريقة التي كان يمكن للدلالة على نحو عام أن تفسر بواسطتها". (نيتشه, 2005)

ويعدّ فوكو أن الدلالات في القرن السادس عشر، كانت تنتظم على نحو متجانس ضمن حيّز كان هو نفسه متجانسًا، إذ إنّ دلالات الأرض تردّنا إلى السماء، وإلى العالم الجوفي، وكانت تردنا من الإنسان إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى النبات، وبالعكس، ومن هنا نلحظ أنّ فوكو يؤكّد على التغيّر الذي أحدثه كلّ من فرويد، وماركس، ونيتشه في القرن التاسع عشر، حيث أخذت الدلالات منحى مختلفًا يمكن تسميته ب "بعد العمق"، وقصد بالتحديد نيتشه الذي نجد لديه نقدًا للعمق الأمثل، ويقصد بذلك عمق الوعي. هذا الذي يدحضه نيتشه بوصفه من ابتكار الفلاسفة، فهو تفتيش صاف وداخلي عن الحقيقة. إذ يحتّم هذا العمق، الاستسلام والرياء، والتقنّع، "بحيث أنّ على المفسِّر، حين يتناول دلالات هذا العمق ليدينها أن ينزل على طول هذا الخط العمودي وأن يبين أنّ عمق الداخلية هذا ليس في الحقيقة شيئًا مختلفًا عمّا يقول. على المفسر من ثمّ أن ينزل وأن يكون، كما يقول:"منقب الأعماق الجيد". (نيتشه, 2005)

لكن فوكو يجد أنه ليس بإمكاننا حين نفسر، أن نسلك هذا الخط المنحدر، إلا لكي نرمم الخارجية البراقة التي كانت مغلفة ومطمورة، وإذا كان على المفسر أن يذهب بنفسه كمنقب حتى القعر، وهنا يعكس فوكو الصورة ويشبه حركة التفسير بحركة شرفة تزداد علوًا، وتدرج دائمًا فوقها العمق الذي يزداد انقشاعًا، ولا نجد سوى انقلاب العمق، واكتشاف حقيقة أنّ ذاك العمق لم يكن سوى مجرد لعبة أطفال. (نيتشه, 2005)

ويتوجه فوكو بانتقاد مفهوم التفسير لدى نيتشه بوصفه تأويلًا غير مكتملٍ على الدوام، فالفلسفة في نظره، ليست سوى "نوع من الفقه اللّغوي المعلق أبدًا، ولا يمكن له إطلاقًا أن يتركز...

ويعتقد فوكو أنّ عدم الاكتمال الجوهري للتفسير مرتبط بمبدأين آخرين، أساسيين هما:

إذا كان لا يمكن أبدًا للتفسير أن يكتمل، فذلك لأنّه، وبكل بساطة، لا يوجد شيء بحاجة لتفسير، وذلك أن كل شيء إنما هو في العمق تفسير، فكلّ دلالة ليست في حدّ ذاتها الشيء الذي يقدّم نفسه للتفسير، بل هي تفسير لدلالات أخرى.(نيتشه, 2005)

وما يستنتجه فوكو هنا، أنّه لا يوجد بالنسبة لنيتشه مدلول أصليّ، فالكلمات نفسها ليست سوى تفسيرات قبل أن تكون دلالات، وهي في النهاية لا معنى لها، إلا بوصفها مجرّد تفسيرات جوهريّة. وهنا يستند فوكو إلى قول نيتشه: "أن الكلمات كانت دائمًا تبتكرها الطبقات العليا، إنها لا تشير إلى مدلول، بل هي تفرض تفسيرات. ومن ثمّ، نحن مفروض علينا الآن واجب التفسير، ليس بسبب وجود دلالات أولى ومحجبة، بل لوجود تفسيرات، ولأنه ما يزال يوجد، تحت كل ما يتكلم، نسيج التفسيرات العنيفة الكبير. ولهذا السبب توجد دلالات، دلالات تملي علينا تفسير تفسيرها، وتملي علينا أن نقلبها كدلالات رأسًا على عقب." (نيتشه, 2005)

وبلغة أدبية ساخرة يتحدث فوكو عن فيض الدلالات وتشابه الأشياء في القرن السادس عشر ويصفها بأنها كانت لأجل وظيفة إثبات طيبة الله، فيما تبدلت في القرن التاسع عشر لتصبح سيئة النية عبر فلسفة كلّ من نيتشه وفرويد وماركس، هذا لأن الدلالة تحتوي في داخلها على طريقة غامضة تسيء فيها النية وتقدم التفسير الذي تريده الإرادة، "ومن ثمّ تصبح الدلالات مجرّد تفسيرات تحاول أن تبرّر نفسها، وليس العكس" (نيتشه, 2005)

يلحظ فوكو أنّ الكلمات والتصنيفات الثنائية للخير والشرّ لدى نيتشه هي مجرّد أقنعة تمارس طمس التفسير وتقنيعه مما يجعلها تفقد وجودها البسيط كدال. كما تصبح ميزة التأويل لديه متمثلةً في أن يجد التفسير نفسه مضطرًا لأن يفسّر ذاته إلى ما لا نهاية، ولأن يستعيد نفسه دائمًا، ومن ثمّ فإن موت التفسير يكمن في الاعتقاد بوجود دلالات ثابتة موجودة أولًا وأصلًا، وفعلًا، كإشارات متجانسة، سديدة ومنظمة. أما حياة التفسير فتكمن في الاعتقاد بأنّه لا وجود إلا لتفسيرات كثيرة، وهنا ينبه فوكو إلى وجوب التفات المعاصرين إلى "أنّ التأويل وعلم الأعراض، هما عدوان لدودان، فالتأويل الذي يستند إلى علم الأعراض هو الذي يعتقد بالوجود المطلق للدلالات ويتخلّى عن العنف، وعدم الاكتمال، ولا نهائية التفسيرات، لكي يجعل إرهاب المؤشر يسود ويطبق فوكو هذا الحالة على الماركسية فيقول: "إننا نتعرف هنا على الماركسية بعد ماركس" فيما يعكس الصورة تمامًا ليصف الحالة النيتشوية إزاء التأويل فيقول: " على العكس من ذلك فإن التأويل الذي يتجلبب بنفسه، إنما هو يدخل في مجال اللغات التي ما تنفك تحتّم بعضها البعض، أي في تلك المنطقة المشتركة بين الجنون واللّغة الخالصة، وهنا نتعرف على نيتشه" (نيتشه, 2005). ومن هنا أرى أنّ فوكو ينحاز إلى التأويل النيتشويّ ويشرحه بلغة أقرب إلى الرمزية والغموض، لغة تقترب من لغة نيتشه، لنشعر أنه يتفق مع الرأي الذي يقضي بأنّ التأويل هو الذي لا تحدّه الدلالات الثابتة ولا التفسيرات المطلقة، وينحاز إلى إطلاق أبواب اللغة على مصراعيها حيث تكون المساحة التي تجمع اللغة بالجنون.

6) الجنون:

في أبرز كتب نيتشه وأقربهم إلى نفسه "هكذا تكلّم زرادشت"، صرخ نيتشه عاليًا مستنجدًا بالجنون ليخرجه من بؤس وجمود العقل المجتمعي الذى ساد في تلك المرحلة، فنادى بجنون محمود له أن يحرّر الناس من قيود ذلك العقل الذي وجد فيه نيتشه ما يقود إلى العدمية، أما الحكمة فلا سبيل لها غير الجنون، يقول: "وا أسفاه، امنحيني الجنون أيتها القوى الإلهية. الجنون كي أخلص إلى الإيمان بذاتي، أعطني هذيانات وتشنجات ساعة صحو وظلمة مفاجئة... إثبتوا لي إذا أنني أنتمي إليكم، الجنون وحده يبرهن لي عن ذلك. " (دولوز, 1998) فدلالة الجنون هنا هي الخروج عن النسق الرتيب للسلطة وتحدّي العدمية والضعف والانحلال، ومن ثمّ يصبح الجنون هو الملاذ إزاء التنكّر المجتمعي لأصحاب القيم الجديدة، ومن ثمّ هو دليل إبداع وعقل وحكمة وهو أيضا نوع من الخلاص يمكّن صاحبه من تحمل العالم المحيط به الذي يشعر إزاءه بالغربة وكذلك هو وسيلة مقنَّعة للتواصل مع هذا المجتمع المتسلط بقوانينه وقيمه البالية...لذا تجده يقول في كتابه (ما وراء الخير والشر) " وأحيانا يكون الجنون القناع الذي يخفي عرفانًا محتومًا ومؤكدا للغاية" (دولوز, 1998)

وكذلك يؤكّد جيل دولوز أنّ الجنون عند نيتشه هو الذي يمهّد طريق الفكرة الجديدة الذي يقطع العلاقة بالتقاليد والخرافات فهو إذن الوسيلة نحو قلب الجمود والثورة على القيم البالية.

وكذلك يحتفي فوكو بجنون العباقرة بوصفه آلية إبعاد لهم خلقتها السلطة القمعية، ففوكو يتبع خطى أولئك الفلاسفة متفقًا ومختلفًا ومضيفًا لطروحاتهم الثورية حول الجنون وعلى رأس أولئك العباقرة نيتشه وموقفه حول الجنون.

وقد عالج فوكو قضية الإقصاء والتهميش والتعذيب التي طوقت المصابين بالجنون سواء كان جنونًا "إكلنيكيا" أم جنون عبقرية وإبداع..إذ يعرض فوكو في كتابه الأول "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" لقضيّة الجنون في عصر النهضة، التي شكّلت مصدر قلق دفعت بالسلطة للتخلص من تلك الفئة التي تشوه المجتمع الأوروبي، بأساليب العزل، والتهميش، والنفي، وضمهّم إلى كلّ الفئات المنحرفة من المجتمع، كالمجرمين، والمشردين، والفقراء،ودفعهم عبر سفينة تجوب الأنهار نحو مصير مجهول...التي يتراوح وجودها بين الحقيقة والمخيال الشعبي.

وكذلك تطرق فوكو إلى تطور التعامل مع المجانين بوصفهم أصحاب مرض عقلي يتطلب العلاج، مما حوّل النظرة إليهم لتصبح نظرة طبية تقع ضمن حقوقهم الإنسانية، إلا أنّ فوكو ظلّ ينظر للأمر بوصفه مجرد سيطرة سلوكية عقلانية على الجنون، وأن الدافع لم يكن إنسانيًا فحسب، بل هو تلبية لحاجات اقتصادية، واجتماعية، دفعت بتلك السلطات احتجاز المجانين، وتشغيلهم، وتسخير طاقاتهم الجسدية، واستثمارها كباقي المهمشين، وهذا ما يشير إليه في تاريخ الجنون ونظام الخطاب.

ومن ثمّ أرى أن فوكو أراد أن يعالج قضية الجنون من زاويتين، أولهما: الزاوية الاجتماعية التي ميّزت ضدّ المجانين سواء بعزلهم والتخلص منهم أو بوضعهم في المصحات العقلية، بحجة النظرة العلاجية الطبية، ومن زاوية ثانية: أراد فوكو متأثرًا في نيتشه، أن ينتصر لجنون الفلاسفة والعباقرة محتذيًا بنيتشه، حين يصبح الجنون شرفًا وعبقرية، تدفع بالسلطة إلى التخلص منهم تحت وطأة كشفهم للحقائق التي تخشاها السلطة ويخشاها المجتمع.

7) موت الإنسان:

نادى فوكو بموت الإنسان بسبب الثورة التكنلوجية، وفقده جراء ذلك لمعايير الإنسان الحقيقية المتمثلة في (الحرية والتسامي والعقلانية)، فيما نادى نيتشه بموت الإنسان العادي من أجل خلق الإنسان الأعلى بديل الإله.

ويتناول فوكو فكرة موت الإنسان التي طرحتها البنيوية، وروجت لها مما أثارت انتقادات المدارس الفكرية الأخرى، لا سيما دعاة حقوق الإنسان. إذ يشير فوكو إلى اهتمام مرحلة القرن التاسع عشر بالإنسان، الذي تمثل في ولادة العلوم الإنسانية لكنه أيضًا يشير إلى مفارقة غريبة، أنّ هذا العصر ذاته شهد موت الإنسان، عبر أطروحات وتشظيات تعبر عن مفارقة غريبة. فالإنسان الذي حاول عصر النهضة صنعه، قد تلاشى في ذات الوقت إزاء الثورة المعرفية التي جعلت الإنسان موضوعًا للمعرفة، وأداة لها في الوقت ذاته، فاخترقته وتغلغلت إلى أدق تفاصيله الحيوية والنفسية والاجتماعية واللسانية، بهدف أن يعرف الإنسان ذاته، فيتسنى له قيادة نفسه، والسيطرة عليها، لكن هذا لم يتحقق بحسب فوكو، فالإنسان المرجو، ضاع في البنيات والأنساق الدراسية التي تتسم بالثبات، وعدم الحركة، مما أفقده حريته فلم يعد يملك نفسه، بل صار خاضعًا لقوالب تلك الأنساق التي تحكمت في تشكله وبلورته.

ويجد فوكو أنّه في العصر الكلاسيكي جرى تصوّر الإنسان من خلال القوى اللامتناهية التي تقود إلى تصور الله اللامتناهي. ويوضح فوكو ما يسميه بفكرة "تحليلية التناهي التي "يحل الله بموجب تناهيه بالذات"، فالحياة والعمل واللغة هنا قوى متناهية، كشفتها العلوم الحديثة وأظهرت أنه "ليست هذه القوى الغامضة، أي قوى التناهي إنسانية، بل ترتبط بقوى الإنسان من أجل تقليصه في تناهيه الخاص، وإشاعة تاريخ فيه، يجعل منه الإنسان في لحظة ثانية تاريخا له". (دولوز, 1987)

يريد فوكو أن يخلص إلى أن دراسة الإنسان من خلال تطبيق المناهج التجريبية، لا يمكن تحقيقه لأنّ دراسة الإنسان أمر معقد يستعصي على العلوم التجريبية، فالإنسان يبدو واضحًا، ولكن عندما يدخل اللامفكّر فيه، يفسد كلّ ما كان يعرفه عن نفسه كاللاشعور، وكأصل كينونته، فكما يقول

فوكو "لكي يفهم الإنسان كينونته، عليه أن يمسك بأصله، ومع هذا فهو يفلت منه حتمًا". لهذا نفهم لماذا قال فوكو: "وإن أثقل ميراث تحدّر إلينا من القرن التاسع عشر- وهو ميراث آن الأوان للتخلص منه- هو النزعة الإنسانية" (فوكو، 2004). وفوكو هنا يدعو بشدة إلى التخلي عن التصور الكلاسيكي للإنسان النابع من الفلسفات والأديان والميتافيزيقيا، فهو يجد أن الرؤية التي زجّت بالإنسان في نسق العلوم الإنسانية، قد أصابت الإنسان في أعز ما يملك: الحرية، والعقل، والاستقلال، والتسامي عن باقي الكائنات. وفوكو من هذا المنطلق ينعى الإنسان ويعلن موته.

وكذلك يشير دولوز إلى أن قصة موت الإنسان هي نيتشوية."فطالما أن الله موجود، أي طالما أن الشكل –الله يشتغل، فالإنسان لم يوجد بعد، أما عندما يظهر الشكل-الإنسان فإن ذلك لا يجري إلا بفهم سابق لموت الإنسان" (دولوز, 1987) فعندما اعتقد الإنسان بوجود الله، فإن هذا يعني أنّه أي الإنسان، لم يكن موجودًا لأنّ وجوده مرهونٌ بوجود ذلك الإله ولأجله، أي من أجل عبادته. وإذا أراد الإنسان التخلص من الاعتقاد بالله (بقتله)، فإن هذا يتضمن موته –أي الإنسان- واختفاءه أيضًا، وذلك بعد أن يفقد ركيزته في الوجود (الله)....ويوضح دولوز أن نيتشه عندما أعلن موت الإله،كان يقصد قتل الإنسان المرتكز على هذا الإله وإماتته طمعًا في الوصول إلى الإنسان الأعلى.

"إذا كان نيتشه هو الذي أشهر موت الإله، فإنه هو الذي أشهر في الوقت ذاته ذلك الإنسان المؤله، الذي لم يكف القرن التاسع عشر عن الحلم به قط. وعندما يبشر نيتشه بمقدم الإنسان الأعلى، فإن ما يبشر به ليس مقدم إنسان أشبه بالله منه بالإنسان، وإنما مقدم إنسان لا علاقة له البتة بذلك الإله الذي ما زال يحمل صورته". (ليشتانبرجر، 1954)

فالإنسان الأعلى هو القادر على إطلاق سراح الحياة ومقدراتها... وربما آمن فوكو بالإنسان الأعلى، إذ يقول: "أنه بزوغ شكل جديد غير الله وغير الإنسان، وثمة أمل في ألا يكون أسوأ من الشكلين السابقين" (دولوز, 1987)

إن نيتشه، بحسب دولوز: "هو أوّل من علّمنا بأنه لا يكفي قتل الإله لإحداث تحويل القيم" (دولوز, 1998)... فنيتشه يرى أن الإنسان، بعد أن يقتل الإله، يتحرر من الحاجة إلى سلطة خارجية، "ويحمّل نفسه عفويًا تنظيميًا وأثقالًا لم تعد آتية من الخارج." (دولوز, 1998)

8) دور الفن:

نادى كلّ من فوكو ونيتشه بالفن باعثًا للحياة. ففي حين يجمل فوكو الحياة برمتها مطالبًا بأن تكون عملًا فنيًا بقوله: "ألا يمكن لحياة فرد أن تكون عملًا فنيًا"، فقد احتفى نيتشه بالفنّ أساسًا لمنطلقات الحياة، لكنّه أراده فنًا عظيمًا. لذا نبذ الفنّ الذي يبعث الفتور والحزن والضعف، ونادى بالفنّ الذي يدفع بالقوة والعظمة. ولهذا ثار على أستاذه الموسيقي فاغنر.

فقد افتتن نيتشه بالموسيقى، فتعرف إلى الموسيقار "ريتشارد فاجنر" عام 1869، وأعجب بعبقريته، فألف أول كتاب له: "مولد المأساة من روح الموسيقى" بدأه بالدراما اليونانية، إذ سعى إلى تحويل المأساة إلى ظاهرة جمالية. يقول بدوي: "كان من الطبيعي أن يعجب نيتشه بفاجنر، ما دام يعجب بأستاذه شوبنهاور، فموسيقى فاجنر تحقيق لنظرية شوبنهاور في الفن، النظرية التي تريد أن تجعل من الفن عمومًا، والموسيقى خصوصًا، الوسيلة الوحيدة للخلاص في الحياة، ومن الحياة، لأن الموسيقى تصوير دقيق شامل لإرادة الحياة، التي هي الوجود. (بدوي, 1956)) ولكن سرعان ما خابت آمال نيتشه العظيمة، التي علقها على فن فاجنر، بعد أن آمن بالفن، بوصفه وسيلة لاستعادة عصر البطولة والرجولة الإسبرطية، فلاذ بالعلم والفلسفة، بعد أن أعلن خيبته، في كلّ من شوبنهاور وفاجنر.

كما يعدّ بدوي "أن نيتشه كان نائماً، عندما تأثر في كل من شوبنهاور وفاجنر، لأن تشاؤم شوبنهاور قد خدره، وأشاع في أعصابه الارتخاء....وموسيقا فاجنر كانت النشوة التي تحدثها نشوة الضعف والانحلال، لا نشوة الفيضان والنبض والقوة،... كما هو شأن الموسيقى الصادرة عن الروح الديونيزوسية" (بدوي, 1956) ذلك أنّ الفنّ اليوناني كان مستمدا من وحي الإلهين: ديونيسوس أو باكوس و"أبولو".

وبهذا يؤسس نيتشه لفلسفة ما بعد الحداثة التي دعت إلى تقدير الفن والإبداع وعدّهما وسيلة الإنسان لمغادرة الجفاف الذي وضعته فيه العقلانية والتقنوية التي حولت الحياة إلى آلة طحنت الإنسان وجعلت منه مجرد أرقام وحسابات، لذا صار الفن نافذة الإنسان التي يطل منها على الحياة والسعادة المنطلقة من الجسد والعاطفة، حتى إن الألم يجد له مخرجًا جماليًا عبر الفن.

وكما أراد فوكو للفن أن يكون حياة وتفاصيل عيش، أيضا أراد نيتشه ذلك، ولكن كما ذكرنا أن الفن عند نيتشه يجب أن يكون باعثا للحياة من منطلقها الأساسي في العظمة والقوة.

9) الغريزة والجسد:

أعلت فلسفة نيتشه أصلًا من شأن الجسد. لذا فإن المنفعة الحيوية هي أقصى ما ترمي إليه الغايات المعرفية من أجل استمرارية الإنسان وتطوره نحو الأعلى. إذن فالمعرفة ليست نزيهة ولا محايدة بل هي متداخلة مع السلطة وحاجاتها ومصالحها المادية الملموسة. ونجد أنّ الدرس، الأساسي الذي استخلصه فوكو من جينيالوجيا نيتشه، هو الربط بين تاريخية المفاهيم، وتاريخية العقل، وتاريخ العقل بتاريخ الجسد. أي "الكشف عن الجذور المعيارية للمقولات العقلية، والدوافع النفعية والحيوية للمنطلقات العقلية، حتى أكثرها إيغالًا في الصورية والتجريد" (ولد أباه, 2004)

إن إنشاء تاريخ للجسد في مقابل فينومينولوجيا (ظاهراتية) العقل وإرساء جينالوجيا أخلاقية للمعارف والأنساق العقلية، هو مشروع فوكو الذي

يستمده من نيتشه، ويتجلى ذلك في استجابة فوكو للائحة الموضوعات التي اقترح نيتشه التأريخ لها وهي: الحب، الشهوة، الوعي، والشفقة، القسوة، تاريخ مقارن للعقوبة، إنها موضوعات فوكو ذاتها. نستخلص أن مشروع فوكو يندرج بوضوح في خط الفلسفة الجديدة الذي دشنته استراتيجية مجاوزة الميتافيزيقيا، بوصفها مشروعًا قام عليه الفكر الفلسفي المعاصر بمختلف مناحيه.

10) الأدب واللغة:

دافع نيتشه عن العلاقة الوطيدة بين الأدب والفلسفة، واحتفى بالفنّ والأدب احتفاء كبيرًا، لا سيما في رائعته الأولى المتمثلة في كتاب مولد التراجيديا من رحم الموسيقى (1872) إذ يعدّ هذا الكتاب، القنبلة الأولى التي فجرها في وجه المفاهيم الفلسفية الأوروبية تحديدًا فيما يتعلق بالفن والأدب، وذلك عبر نقده للتراجيديا في ظلّ اشتغاله على الفيليولوجيا والنقد والتأويل معًا.

ومن ثمّ كان لثورة نيتشه القيمية أثر كبير في التأسيس لجذور ما بعد الحداثة، كإنكار وجود الحقيقة اليقينية الثابتة، وكذلك سمة التنصّل من المعايير والقواعد التي تميزت بها نظريات ما بعد الحداثة في مجاليّ النقد والأدب، أي تخلصها من النظريات والقواعد المنهجية، ومن أبرز المتأثرين في ذلك، ميشيل فوكو الذي سخر ممن ينطلق من منهجيات محددة يكررها دائما، ويحفظها عن ظهر قلب، فيرى أنّ النّص أو الخطاب متعدد الدلالات، يحتمل قراءات مختلفة ومتنوعة." (كارتر, 1990)

وقد حاول فوكو أن يخرج من سطوة التجربة الشعرية التراجيدية عند نيتشه كما سبق وغادر الكينونية الهيدجرية إلى مرحلة صنع فيها منهجًا خاصًا به، قادر على فرز الأشكال الخطابية وإبراز آلياتها على المستويات التاريخية والانثربولوجية والأبوستومولوجية.

إلا أنه ظلّ يشترك مع نيتشه في جوانب كثيرة من الثورة القيمية بأسرها التي طالت الأدب، وذلك عبر آركيولوجيته التي تنتهج كما الجينيالوجيا مهمة إبراز التمفصلات الخطابية، إذ إنها لا تقف عند التحليل والوصف وإصدار الأحكام فقط، بل إنّها ترفض صفة العلم والعلمية، كما سبق ورفضها نيتشه في مولد التراجيديا.... ومن ثمّ، أراد فوكو في كتابه الكلمات والأشياء أن يترك الذات حرّة لتكون الممارسة حرّة أيضًا، وهو هنا يتجاوز حدود التصنيفات، ويحاول أن يستنبط النشاط الخطابي الناتج عن إرادة المعرفة..وأن يقف على مكونات هذا الخطاب وتفاصيله.

كما نلحظ أنّ من أوجه انحياز نيتشه للأدب، اللغة الجميلة التي قدّم فيها أفكاره عبر أدبياته التي تضج فلسفة وحياة، كما انحاز فوكو أيضًا للأدب واللغة في "نظام الخطاب" و"الكلمات والأشياء" والكثير الكثير مما يسوقه إلينا عبر فلسفة تخالها مدججة بالسلاح، لتجدها تنزل الفلسفة من عليائها لتحتفي باللغة والأدب، والإنسان، وترسي قواعد للتعبير تستند إلى الحقيقة المقترنة بالمعرفة والسلطة. متأثرًا في ذلك بنيتشه، الذي نقد الفلسفة الكلاسيكية وفكّكها عبر أدوات لغوية وشعرية وسيكولوجية بقصد زعزعة يقينية تلك الأفكار، ولم يهتم بدحضها منطقيًا وفلسفيًا، "فهو يسخر من الأفكار ويقلل من شأن فكرة ببيان إمكانية نقيضها ومعقوليته، وببيان جذور الفكرة وأرضيتها ومصدرها اللاعقلي. وهو دومًا صاعق صادم. هذه طريقته في تحطيم الأفكار مما ميزه وأكسبه السّحر الخاص، الذي أثّر في عدد كبير من مفكري وفلاسفة ما بعد الحداثة، لا سيما فوكو، وهو من الفلاسفة الأكثر تأثيرًا في العصر الحديث" (غصيب, 2017)

خلاصة:

لا شك في أنّ السّيطرة على المضامين والأفكار لدى كلٍّ من نيتشه وفوكو ضمن طيات هذه العجالة البحثية لمن الأمر المتعذر، لما تنضوي عليه فلسفتاهما من تفاصيل تمسّ حياة الإنسان الأرضية غير المتعالية، وفق نظرة ثورية نقدية زعزعت كلّ القيم المعرفية السّابقة ووضعتها على مائدة النقاش والتعرية. إنّ ما تزخر به فلسفة نيتشه من تفاصيل حياتية أرضية تكاد تمس كل القضايا المادية والجسدية والذهنية للإنسان، التي شكّلت تأسيسًا لفكر ما بعد الحداثة عند عدد كبير من المفكرين، تلك الجذور التي انطلق منها فوكو قارئًا ومحللًا ومضيفًا ومنتجًا للجديد الذي يراه متسقًا مع الإيقاع العصري للحياة، لخصها فوكو بجملته البسيطة السالفة الذكر: " أنا ببساطة نيتشوي..."... لذا أجد أنّ أبرز ما نخلص إليه هو:

- أن فوكو تتبع آليات الحفر النيتشوي في البحث والتأسيس لفلسفته الجديدة ليرسم خطًا جديدًا لا يختلف مع نيتشه وإنما يعززه ويشرحه برؤية فوكوية خاصة. ذلك أن فلسفة نيتشه الشائكة الغارقة في اللغة المجازية والشعرية والعميقة حدّ التعمية في بعض أجزائها، هي حمّالة أوجه مفتوحة على التأويل، ولكنها وإن كانت تحتمل صروفًا من التأويل، أرى أن هذا التأويل لا يتجاوز حدّ المضامين والخطوط العامة لفلسفة نيتشه، ولا يقلب المعنى ويحرفه عن سياقه التاريخي العام..
- إنّ تأويلية فوكو لنيتشه لم تكن تنظيرية أو شارحة فقط، بل إنها تجسدت عبر فلسفة حيّة، ذات ملامح خاصة، لا تنسلخ عن جذورها الجينية النيتتشوية، إذ يتبدى هذا لعين القارىء بيسر...
- وما ألحظه أنّ إن قراءة هذا الأثر النيتشوي قد تتفاوت قليلًا، فجيل دولوز على سبيل المثال لا الحصر، استطاع أن يسلّط كشّافه النقدي على كلّ من نيتشه وفوكو، وكذلك على علاقة فوكو بنيتشه لاحقا... برز ذلك جليًا في كتابه "السلطة والمعرفة"، الذي أوضح فيه تلك العلاقة بعين نقديّة، لكنها تعزز الأثر العميق لنيتشه في فلسفة فوكو، الذي أجد أنّه أثرًا لفلسفة نيتشه في دولوز أصلًا. إذ لا يستطيع دولوز إخفاء انحيازه هذا حين يقول:

"يقوم مشروع نيتشه على إدخال مفهومي المعنى والقيمة إلى الفلسفة، وبديهي أن الفلسفة الحديثة في جزء كبير منها عاشت ولا زالت تعيش على نيتشه.." (دولوز, 2001)

- من هنا أعود إلى موقف فوكو الذي انطلق من قضيّة قلب نيتشه لطبيعة الدليل بوصفه مفتاحًا للفلسفة النارية الجديدة التي تتبع خطاها، التي تضع كلّ شيء على بساط النقد والمراجعة المستمرين، ذاك النقد المتكىء على الجينيالوجيا النيتشوية والآركيولوجية الفوكوية.

المصادروالمراجع

خاص، ج، (2013)، المنظور الفلسفي للسلطة عند ميشيل فوكو، رسالة أكاديمية قدمت للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة الأردنية، إشراف الدكتور وليد العطاري.

دولوز, ج, (2001), نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

دولوز، ج (1987) المعرفة والسلطة: مدخل إلى قراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت، بيروت: المركز الثقافي العربي.

دولوز، ج، (1998م)، نيتشه، ترجمة، أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

الشابي، ن، (2005)، نيتشه ونقد الحداثة، القيروان: دار المعرفة للنشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

فائز إسماعيل، مقال: أضواء حول صدى نيتشه في فكر ميشيل فوكو، أنفاس نت، من أجل الثقافة والإنسان.

فنك، أ، (1974)، فلسفة نيتشه، ترجمة، الياس بديوي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

فوكو، م, (1988), جينيالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي،الدار البيضاء: دار توبقال للنشر والتوزيع.

فوكو، م, (2004)، تاريخ الجنسانية،: إرادة العرفان، ترجمة محمد هشام، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.

فوكو، م,(1984)، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

كيرزويل، إ, (1986), عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، ترجمة جابر عصفور، الدار البيضاء: دار قرطبة للطباعة والنشر.

ليشتانبرجر، هـ، (1954)، نيتشه، ترجمة خليل الهنداوي، بيروت: دار بيروت.

مجلة بيت الحكمة، عدد1، سنة 1، أبريل, 1986, الدار البيضاء: دار قرطبة للطباعة والنشر.

نيتشه، ف, (2006)، جينيالوجيا الأخلاق، ترجمة محمد الناجي، الدار البيضاء: افريقيا الشرق.

نيتشه، ف، (1995)، ما وراء الخير والشر، ترجمة جيزيلا فالور الحجار، بيروت: دار غروب.

نيتشه، ف، (2001), العلم والجذل، ترجمة سعاد حرب، بيروت: دار المنتخب العربي لدراسات والنشر والتوزيع.

نيتشه، ف، (2005) الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تعريب سهيل القش، تقديم، ميشيل فوكو، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

نيتشه، ف، (2008) مولد التراجيديا، ترجمة شاهر حسن، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

ولد أباه، س, (2004), التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو، بيروت: الدار العربية للعلوم.

Arabic References in English

Foucault, M., (1984). Nizam al-Khattab, translated by Muhammad Sabila, Beirut: Dar al-Tanweer for Printing and Publishing.

Foucault, M., (1986). The Excavations of Knowledge, translated by Salem Yefoot, Beirut: Dar Al-Tanweer for Printing and Publishing.

Foucault, M., (1988). The Genealogy of Knowledge, translated by Ahmad al-Sattati and Abd al-Salam Ben Abd al-Aali, Casablanca: Dar Toubkal for Publishing and Distribution.

Foucault, M., (1990). The Will to Know, translated by Mata'a Safadi and George Abi Saleh, Beirut: National Development Center.

Foucault, M., (1990). Words and Things, translated by Mata'a Safadi and Salem Yefoot, Beirut: National Development Center.

Foucault, M., (1990). Monitoring and Punishment, The Birth of Prison, translated by Ali Moqled, Beirut: National Development Center.

Foucault, M., (2004). History of Sexuality,: The Will of Irfan, translated by Mohamed Hesham, Casablanca: East Africa.

Foucault, M., (2006). History of Insanity in the Classical Era, translated by Said Pinkrad, Casablanca: The Arab Cultural Center.

Nietzsche, F., (1997) Thus Spoke Zarathustra, translated: Felix Fares, Beirut: The Cultural Library.

Nietzsche, F., (1995), Beyond Good and Evil, translated by Gisela Valor Al Hajjar, Beirut: Dar Grob.

Nietzsche, F., (1981), The Origin of Ethics and its Chapter, translated by Hassan Al-Qubaisi, Beirut: University Foundation for Studies and Publishing.

Nietzsche, F., (2001), Science and Jubilation, translated by Souad Harb, Beirut: Arab National Team for Studies, Publishing and Distribution.

Nietzsche, F., (2005) Philosophy in the Greek Tragic Era, Arabization of Suhail al-Qish, Introduction, Michel Foucault, Beirut: University Foundation for Studies, Publishing and Distribution.

Nietzsche, F., (2006), The Genealogy of Ethics, translated by Muhammad Naji, Casablanca: East Africa.

Nietzsche, F., (2008) The Birth of Tragedy, translated by Shaher Hassan, Lattakia: Dar Al-Hiwar for Publishing and Distribution.

References:

Oberinus, Michel Foucault: A Philosophical Journey, translated by George Abi Saleh, Beirut: National Development Center Publications.

Badawy, PBUH, (1956), Nietzsche, Cairo: The Egyptian Revival Library.

Al-Haddadi, PBUH, (2007), For Things That Smell, The Philosopher's Meeting with the Painter, Fez: Postmodern Publications.

Khas, J., (2013), The Philosophical Perspective of Power in Michel Foucault, an academic thesis submitted for a PhD in Philosophy from the University of Jordan, supervised by Dr. Walid Al-Attari.

Deleuze, J. (1987) Knowledge and Power: An Introduction to Foucault's Reading, translated by Salem Yefoot, Beirut: The Arab Cultural Center.

Deleuze, J., (1998 AD), Nietzsche, translation, Osama Hajj, Beirut: University Foundation for Studies, Publishing and Distribution.

Deleuze, J., (2001), Nietzsche and Philosophy, translated by Usama Hajj, Beirut: University Foundation for Studies, Publishing and Distribution.

Shabi, N., (2005), Nietzsche and the Criticism of Modernity, Kairouan: House of Knowledge for Publishing, College of Arts and Human Sciences.

Fank, A., (1974), Nietzsche's Philosophy, translation, Elias Bedioui, Damascus: Publications of the Ministry of Culture and National Guidance.

Kerzweil, I, (1986), The Age of Structuralism from Levi Strauss to Foucault, translated by Jaber Asfour, Casablanca: Cordoba House for Printing and Publishing.

Lichtenberger, H., (1954), Nietzsche, translated by Khalil al-Hindawi, Beirut: Dar Beirut.

Ould Abah, S., (2004), History and Truth by Michel Foucault, Beirut: Arab Science House.

Carter, D., (1990) The Literary Theory, translated by: Basil Al-Masalmeh, Dar Al-Takween: Damascus.